

الشاب من خدم! وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدّمت! ولكنها لم تقدم إليه يومًا من الأيام فتاة مثلي، لها مثل ما لي من جمال الوجه، واعتدال القد، ورجاحة العقل، ومهارة اليد، والعلم بحاجات الشبان المترفين، سيكون أجرها مضاعفًا، أما أنا فسأسعد السعادة كلها في هذا البيت الأنيق الجميل، وفي خدمة هذا الشاب المترف الغني الوحيد. لن تأمرني سيدة الدار، ولن ينازعني خدم الدار. سأكون وحدي صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه. قالت ذلك وأرسلت شهيقها المرتفع، وشخيرها المنكر، وضحكها العالي، ثم انقضت علي وضممتني إليها ضمًّا عنيفًا وهي تقول: «إني لأغبطك وأحسبك معًا؛ أغبطك لأنني أحبك، وأحسبك لأنني أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوي هذا البيت من نعيم.»

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها، فلا أنبئها بأني قد دبرت لهذا اليوم تدبيرًا، وأعددت له إعدادًا، واشتريته بالمال، وانتظرت مقدمه واثقة بأنه سيقدم، مطمئنة إلى أنه سيحين، ولم أظهرها على هذا كله، وأمري كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكيد.

نعم! لم أنبئها من هذا كله بشيء، ولم أنبئها حين أصبحنا بأني لم أذق النوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسي، وإنما قضيت الليل كله يقظة، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم، وأفكر في غد وفيما بعد غد، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حبٍّ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر، وبما ذاقته وما بقي لها أن تذوق من لهو، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها أن يأتي حركات مختلفة تلائمها، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها، وكنت أرى ذلك منها وأسمعه، فأرثي لها وأرثي لنفسي أيضًا: أرثي لها في حياتها هذه الصغيرة الحقيرة التي خلت من كل حسٍّ دقيق، أو شعور عنيف، أو تفكير عميق، وأرثي لنفسي من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير، وتفعمها الأحداث والخطوب.

نعم! قضيت الليل كله مؤرقة، وليس من شكٍّ في أنه كان طويلًا، وليس من شكٍّ في أنه كان ثقيلًا لو فرغت له، ولكنني شغلت عن الليل ببنيات الليل، شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التي لم تكد تحس أني خلوت إلى نفسي حتى تراءت لي، ثم دنت إلي ثم استقرت مني غير بعيد، ثم أخذت تتحدث إلى نفسي حديثًا أعقله ولا أسمعه، وأجد له في قلبي وقعًا لاذعًا حلواً معًا، صورتك هذه التي رأيته